الدكتور محمد علي الشامي

المرأة في الشعر العربي

التقى بها بعد طول بحث وانتظار، فارتاحت أعصابه، وشعر براحة تامة، وأذهلته المفاجأة، فراح يحدّق في عينيها ليرحل في متعة ونشوة عارمتين. حدّثته بغنج ودلال، فسكر بتمتمات الشفاه،. خطرت أمامه في دلع وكأنها في رقصة غجرية، فرقص قلبه طرباً، وراح يتمايل ثملاً بين أضلعه. ويوم غابت عن عينيه، راح يتذكرها بلهفة وحنين. يومها ، ويومها فقط: كان الغزل.

إنها المرأة، تلك الأغنية الخالدة على شفتي الرجل، والصورة الساحرة التي تحلق دائما في فضاء مخيلته. إنها أكبر وأثمن هدية منّ بها الخالق على الرجل، بل هي أجمل مخلوق على وجه الأرض.

منذ حوّاء الأولى، وآدم يجوب الأرض، بحثا عنها، ويتحدى أقسى الصعاب ليعثر عليها. ولازال حتى يومنا هذا يجري وراءها، ويحاول الركون إليها والإستمتاع بوجودها بقربه. لكنها الخبيرة التي تجيد الغنج والدلال، وتتقن ببراعة فائقة لعبة الإختباء والظهور، حتى إذا سدت في وجهها السبل، إلا سبيل الرجل ، راحت تشكو وترق، لتتغلغل في حنايا قلبه، فينسى كدّه وتعبه، ويبدأ من جديد رحلة البحث والتفتيش والمعاناة للفوز بقلبها.

كثيرة هي مواقع المرأة ومواضعها، وعظيم جدا هو أثرها: فهي الأم، وهي الزوجة، وهي الأخت والبنت والزميلة والصديقة. وفي كل دور من هذه الأدوار، لها خصوصية وميزة. لكنّ ما يجمع بين هذه الأدوار، هو أنها منبع الحب والحنان والعطاء، وبلسم جراحات القلوب، ومفجّرة مواطن الإلهام والإبداع في وعي الرجل. وقد عرفت الشرائع السماوية مكانتها ، ولم تزل توصي بها وتحثُّ على احترامها والعناية بها، وكذلك فعلت كل السنن والقوانين البشرية..

وإذا أردنا أن نحيط بما يتعلق بهذا المخلوق المعجز، لفشلنا بالطبع، لأن حكاية المرأة هي حكاية الكون كله منذ وجوده، وإلى أن يرث الله الأرض وما عليها.

وسوف نحصر حديثنا إذن عن عروسة الشعر، أي عن المرأة في الشعر العربي. وإذا كانت المرأة مالكة قلب الرجل، وشاغلة تفكيره في كل زمان ومكان، فحريّ بالشاعر وما به من إحساس مرهف، أن يشعر قبل الجميع بذلك النغم اللذيذ الذي يحرك أوتار قلبه. كيف كان رد الفعل عند الشاعر العربي؟ وكيف تعامل مع المرأة، وكيف خاطبها؟ وماذا رأى فيها؟ هذا هو محور هذه المقالة.

لم يترك الشاعر العربي في المرأة ركنا ولا زاوية، إلا وتحدث عنه ووصفه. ولم تفلت منها حركة أو لفتة أو إيماءة أو إشارة إلا ورصدها. ولم يصدر عنها ابتسامة أو بكاء أو آهة أو تنهدة، إلا ومزج ذلك بعبير شعره. فكانت المرأة بالفعل عروسه التي بها تغنى، وقيثارته التي عزف عليهاآماله وآلامه، وبثها أمانيه وشكواه.

يندر جدا في الشعر العربي القديم أن نجد قصيدة لا تبدأ بذكر الحبيبة ووصفها والتشكي من حبها وهجرها، أياّ كان موضوع القصيدة. وقد سمى النقاد هذا استهلالاً غزلياً تقليدياً، دون أن يحددوا، ولو لمرة واحدة ،أسباب هذا الإستهلال ودوافعه.

والحقيقة في رأينا ، وبكل تواضع، أن هذا الإستهلال الغزلي، كان يتخذ منه الشاعر مقبّلات نفسية تمده بالأخيلة والمعاني وتمنحه القدرة على النظم في الموضوع المطلوب. وإلاّ، فبماذا نفسر لجوء الشاعر كعب بن زهير بن أبي سلمى إلى هذه المقدمة الغزلية وهو يقف بين يدي رسول الله، بادئا بالتشكي من هجر حبيبته سعاد والتغزل بها وبمحاسنها حيث يقول:

بانت سعاد، فقلبي اليوم متبول متيّم إثرها، لم يُفْدَ مكبول

وما سعاد غداة البين إذ رحلوا إلاّ أغنّ، غضيض الطرف،مكحول

تجلو عوارض ذي ظلم إذا ابتسمت كأنه، منهل بالراح، معلول..

فالشاعر هنا وقد وقف بين يدي أعظم شخصية إسلامية، وفي موقف خطر جداً، لم يجد حرجاً من الإنطواء على ذاته، ومعايشة ذكرى الحبيبة للحظات قليلة يلتمس فيها ،ومنها، الأمان والشجاعة لمواجهة أخطر محاكمة مر بها في حياته.

وإذا استقرأنا نتاج فحول شعراء في الجاهلية وبعض صدر الإسلام، لما وجدنا شاعراً واحداً يشذ عن هذه القاعدة، إلا فيما ندر، مما يدفعنا إلى الإستنتاج، أن احترام الشعراء لهذا النهج وتقديسه،إنما يعود ان إلى تحكم المرأة في فكر هؤلاء الشعراء، إلى درجة أصبح معها خيال هذه المرأة يوجّه سلوكهم وتفكيرهم، ويتحكم بشكل قصائدهم وصورتها..

لكن الملاحظ، أن هؤلاء الشعراء، ولأسباب فكرية وثقافية، لم يتعدوا في حديثهم عن المرأة ووصفها، لم يتعدوا حدود جسدها الخارجية، ولم يغوصواإلى أعماقها الإنسانية، مع أنهم كانوا يحسّون بما يعتمل في داخلها من مشاعر وأحاسيس،إلا أنهم كانوا عاجزين عن ملامسة خبايا نفسها وتفسيرها بوضوح، بسبب ثقافتهم الضحلة أو المعدومة في أكثر الأحيان،أو بسبب التقاليد القبلية القائمة على صيانة العرض، واعتبار المرأة نقطة الشرف الأولى في مجتمعاتهم

البدوية، لذلك راحوا يتفننون فقط بما تقع حواسهم عليه من شكل المرأة وأبعاد جسدها. والجدير ذكره في هذا المجال من التمويه وكتمان صورة الحبيبة أن يعمد كثير من الشعراء إلى التكنية عن الحبيبة بلفظ الحبيب إمعاناً في التستر والحذر...

وإذا وصلنا إلى العصر الأموي، وجدنا أن المرأة قد اتسعت مداركها، واطلعت على فنون جديدة من الإغراء والتزين، فتنت بها قلوب الرجال على اختلاف مستوياتهم، من الناس العاديين، وحتى الخلفاء ورجال الحكم والدولة. أما القصيد فلم يقصر عن الإرتماء في أحضان المرأة، ينهل منها أروع ما سجّل الشعر في ميدان هذه المرأة. وبالإضافة إلى أن نسبة كبيرة من شعراء هذا العصرقد نسجوا على منوال الجاهليين. في استفتاح قصائدهم بذكر المرأة والتشوّق إليها،إلا أننا نقع في هذا العصر أيضا، على أهم مدرستين غزليتين، وربما في تاريخ الغزل العربي عامة، أعني بهما المدرسة الغزلية الحضرية، والمدرسة الغزلية العذرية. ونلاحظ في هاتين المدرستين، أن زعيميهما قد حرما على شفاههما إلا طعم القبل وحديث القلوب والعشق، ومنعا عن لسانيهما إلاحديث الغرام والغزل. وإذا كنا قد وجدنا المرأة عند جميل بثينة العذري، ظالمة للحبيب، تمنعه وتصده، إلا أنه مستعد ، على الرغم من صدها له، إلى التضحية بكل شيء في سبيلها،شرط أن ترضى في سرها عنه، أو أن يسمع صوتها ولو بأية لفظة عابرة. المهم عنده أن يسمع هذا الصوت ويتنعم به، ولو أدى ذلك إلى يقظة الوشاة ونميمتهم:

وإني لأرضى من بثينة بالذي لو أبصره الواشي لقرّت بلابله

بلا، وبلا أستطيع ، وبالمنى وبالأمل المرجوّ، قد خاب آمله

وبالنظرة العجلى، وبالحول ينقضي أواخره لانلتقي وأوائلــه

إن المرأة بالنسبة لجميل وامثاله هي كل شيئ، بل هي الحياة التي بها يحيا، لذلك هو مستعد لأن يدافع عنها بكل ما يملك، إلى حد التضحية بأثمن ما يمتلكه العربي في مجتمع العرب القبليين، اعني بها يده اليمنى التي يعتمد عليها اعتماداً كلياً، فيقول في ذلك:

ولو أرسلت يوما بثينة تبتغي يميني، ولو عزّت علي يميني

لأعطيتها ما جاء يبغي رسولها وقلت لها: بعد اليمين، سليني

ولم يتوقف الأمر عند جميل وأمثاله، عند حد التضحية في سبيل المحبوبة، بل إنه اعتبرها معبودته وقدسه ، فبها ينال نعيم الدنيا والآخرة. وقد قيل لجميل مرة: لماذا لاتشارك المسلمين في الجهاد، فتكسب أجراً في الدنيا والآخرة،؟ فأجاب:

يقولون: جاهد يا جميل بغزوة وأيّ جهاد،غيرهن، أريد؟

هذا في المدرسة العذرية، أما في الإتجاه الغزلي الآخر، أعني المدرسة الحضرية، فقد كانت المرأة هي الشغل الشاغل لشعراء هذه المدرسة. صحيح أن عمر بن أبي ربيعة، زعيم هذه المدرسة: قد جاهر بوصف المرأة وشهّر بها، ولم يخلص لامرأة بعينها، إلا أنه كان لا يقوم بأي عمل، سوى الحديث عن المرأة والتغني بجمالها ووصف مفاتنها. وما كان يترك امرأة إلا ليقع في امرأة سواها. والحرمان الذي كان يشعر به، هو في تلك الفترة الزمنية القصيرة بين المرأة التي تركها للتو، وتلك التي هو في الطريق إليها. لقد اتخذ شعاراً له صار عنواناً لكل شعراء الغزل الحضري،هو: سلام عليها ما أحبت سلامنا فإن كرهته، فالسلام على أخرى

والجدير ذكره،أن عمر هذا،وبحكم معاشرته للنسوة،فقد استطاع أن ينفذ إلى أعماق المرأة، ويغوص في نفسيتها، فيرصد كل خلجة وحركة وإيماءة، ويصبح خبيراً بأحوالها ونفسيتها

وفكرها، بالإضافة إلى خبرته المؤكدة بجسدها. ولنسمعه يصور ردة فعلها عندما فاجأها في خبائها، فارتاعت للمفاجأة وكادت تصرخ، لولا أن تداركت الأمر بعضّ بنانها، ثم حين اطمأنت لوجوده،عقدت على رأسه تاج الإمارة، ونصّبته على عرش قلبها، فيقول في ذلك:

فحيّيْت إذ فاجأتها فتولّهت وكادت بمخفوض التحية تجهر

وقالت: وعضّت بالبنان، فضحتني وأنت امرؤ، ميسور أمرك، أعسر

أريتك إذ هُنّا عليك، ألمْ تخف؟ وُقيت، وحولي من عدوك حضّر

فوالله ما أدري، أتعجيل حاجة سرت بك،أم نام من كنت تحذر؟

فقلت لها : بل قادني الشوق والهوى إليكِ، وما عين من الناس تنظر

فقالت وقد لانت وأفرخ روْعها: كلاك بحفظ ربك المتكبر

فأنت، أبا الخطّاب غير مدافع عليّ أمير ما مكثت،مؤمّر.

وهذا يزيد بن معاوية، يُنحله العشق ويصبح غير قادر حتى على شرب الماء. والغريب في ذلك أنه محسود على ما يعانيه لأجلها. يقول واصفاً وشماً على يدها:

نالت على يدها ما لم تنله يدي نقشاً على معصم، أوْهت به جَلدي

كأنه طرق نمل في أناملها أو روضة، رصّعتها السحب بالبرد

وخافت على يدها من نَبل مقلتها فألبست زندها درعاً من الزرد

أُنسيّة لو رأتها الشمس ما طلعت من بعد رؤيتها يوماً على أحد

سألتها الوصل قالت: أنت تعرفنا من رام منّا وصالاً مات بالكمد

فكم قتيل لنا بالحب مات جوى من الغرام، فلم يُبدِ، ولم يّعد

فقلت: أستغفر الرحمن من زلل إن المحب قتيل الصبر والجلد

قد خلّفتني طريحاً وهي قائلة: تأمّلوا كيف فعل الظبي بالأسد

قالت لطيف غزال زارني ومضى: بالله صفْه، ولا تُنْقصْ ولا تزد

فقال: خلّفته، لو مات من ظمأ وقلْت: قفْ عن ورود الماء، لم يَرد

قالت: صدقت: الوفا في الحب شيمته يا بَرد ذاك الذي قالت على كبدي

واسترجعت سألت عني فقيل لها: ما فيه من رمَق، دقّت يداً بيد

واستمطرت لؤلؤاً من نرجس وسقت ورداً ، وعضّت على العنّاب بالبرد

هم يحسدوني على موتي فوا أسفي حتى على الموت، لا أخلو من الحسد.

ولما انتقل الحكم إلى العراق، نشأت حياة جديدة لم يعرفها العرب من قبل، وتفتحت أمامهم آفاق جديدة أحدثت ثورة في الغزل العربي. لقد أصبحت بغداد ملتقى الحضارات، أو صارت المحيط الكبير الذي تصب فيه كل الروافد الحضارية، من فارسية ورومية وتركية وهندية وغيرها، واختلطت الأجناس والأديان،وتزاوجت العادات والتقاليد، وتمازجت تمازجاً غريباً ومدهشاً،أصاب المرأة منه نصيب كبير، فاندفعت تنهل من هذه الحياة الجديدة، وطرقت بيوت التجار والأمراء، وأبواب الخلفاء، ثم تربعت في قصور الخلفاء، فأصبحت أما وزوجة وشريكة في الجكم أحيانا. وكانت الجواري والسبايا يوزّعْنَ على الفاتحين، ويبعن في سوق النخاسين،

وفيهن جوار حسان، هفا إليهن الشعراء والأدباء، يشدهم إلى ذلك جمالهن وثقافتهن، إضافة إلى اللين والسهولة والغنج الموجود فيهن. وصار الشاعر يرى الإماء سافرات في الأسواق، ويجتمع إليهن ويطرب لغنائهن ، ويسكر برقصهن. فهن مجيدات للشعر والغناء، وعازفات على آلات الطرب كالعود والناي والزمر والدف، فرأى فيهن ما لم يرَ الجاهلي والأموي من المرأة، ولم يخشَ في وصفهن إثماً، فراح في شعره يدور أحيانا حول الجسد، وحيناً حول العقل والذكاء والأدب، وصار اجتماعه بهن أمراً عادياً ومألوفاً، في الحدائق والبساتين والمواخير، حيث المناظر الجميلة التي تفوح منها الروائح العطرة.

كان الشعراء فيما مضى، يستعملون أحياناً اللفظ المذكر، رامزين به إلى المرأة، فيتحدثون عن الحبيب ، لأسباب عديدة منها خوف افتضاح أمر المرأة وما يجر ذلك من مشاكل وخصومات. إلا أننا نرى في هذا العصر فريقاً من الشعراء ، تجرّؤوا على كل شيئ، وضربوا بالقيم والفضائل عرض الحائط، ودعوا أحياناً إلى الإشتراك في امرأة واحدة، كما أخذوا يتغزلون بالمذكر،لا تكنية بل تصريحاً، فأشادوا بجمال الغلام وسعوا إليه وأقاموا له المجالس العطرة، ونظموا فيه كثيرا من القصائد شكلت في أدبنا العربي ما يعرف بباب " الغزل بالمذكر". وهناك نوع آخر اسمه "الغلاميات"، نشأ عندما خافت النساء والجواري من انصراف الرجال عنهن، فتزيّا كثير منهن بزي الغلمان، تحبباً وتقرباً من الرجال وجذبهم، وساد العبث واللهو والمجون في حواضر العراق، وانغمس فيها عدد كبير من الناس على اختلاف مستوياتهم. وقد انعكس ذلك على المحصنات من النساء، فاستخف بهن علناً، تشبهاً بالإماء والجواري. جاء في الأغاني للأصفهاني (أن مطيع بن أياس مرّ بيحي بن زياد وحماد الراوية وهما يتحدثان، فقال لهما:فيم أنتم؟قالا: في قذف المحصنات! قال: أوَ في الأرض محصنة تقذفانها؟!

وقد يكون من أسباب هذا الإنفلات والإنفلاش في الفحش والفجور، قد يكون سلوك المرأة نفسها من أهم الأسباب، إضافة إلى أسباب أخرى. فالمرأة، إلى حد كبير، جرت وراء التهتك واللذة وخلعت ثوب العفاف، وصار همها الإيقاع بالرجل بأية وسيلة: والإغتراف من اللذات ما وسعها ذلك، وتزيّت في أحيان كثيرة بزي الرجل، وقصت شعرها على طريقة الرجال، حتى صار التمييز بينهما في الشكل أمراً بالغ الصعوبة...

وشعرنا العربي العباسي، يضيق بما يصور هذه الحالة، وما يشيع فيها من فسق وفجور وفحش وجراءة وحب وشوق ولذة. ومن أراد الإطلاع على ذلك، فليرجع إلى دواوين بشار وأبي نؤاس وابن الضحّاك ومسلم بن الوليد ومطيع بن أياس وغيرهم كثير...

ولا بد أن نلمّ ببعض هذا الشعر الذي لايعبر صراحة، ولا يصور ما وصفه الشعراء مما يخدش الحياء ويجرح الإباء والعفة.. لنستمع إلى بشار بن برد مثلاً وهو يختلس الفرصة وينهب اللذة الحرام، غير مبال بحلال أو حرام فيقول:

قالوا : حرام تلاقينا فقلت لهم ما في التلاقي ولا في غيره حرج

من راقب الناس لم يظفر بحاجته وفاز بالطيبات الفاتك اللهج

وعلى عماه فقد استخف بالنساء أيّما استخفاف، ولم يجد فيهن واحدة صعبة المنال أو شريفة:

لا يؤْيسنّك من مخدّرة قول تغلّظه وإن جرحا

عسر النساء إلى مياسرة والصعب يمكن بعدما جمحا

ويقول واصفاً قبلته وقد خلّفت على شفتي حبيبته أثراً مخيفاً: فراحت تعاتبه

كيف بأمي إذا رأت شفتي؟ أم كيف إن شاع منك ذا الخبر؟!

قلت لها عند ذاك: يا سكني لا بأس، إنـي مجـرّب خبِر

قولي لها: بقّة لها ظفر إن كان في البقّ ما لـه ظفر

وعندما يرسم معشوقته، فإنه يصفها في صورة مادية حسية على غرار القدماء، مع شيئ من التضخيم والفحش:

ومرتجة الأرداف مهضومة الحشا تمور بسحرٍ عينها وتدور

إذا نظرت صبّت عليك صبابة وكادت قلوب العالمين تطير

فبتنا معاً لا يخلص الماء بيننا إلى الصبح، دوني حاجب وستور

ولكن هذا الشاعر ومن على شاكلته، يبلغ مرتبة سامية في الغزل حين يطلب إليه االخليفة أن يقول شعراً في المحبين، فيعف ويبرأ لفظه من الجسد، ويعلق بالعين وبالقلب فقط، كما في قوله:

زوّدينا يا "عبدُ" قبل الفراق بتلاقٍ، وكيف لي بالتلاقي؟!

أنا والله أشتهي سحر عينيـــــكِ، وأخشى مصارع العشاق

مما دفع بالشاعر أبي تمام إلى القول عن هذين البيتين: "لم أرَ شعراً أغزل من هذا". وكذلك الأمر عند الشاعر أبي نوّاس الذي اشتهر بنهمه إلى اللذائذ الحسية، والذي أحسن بوصف النساء وغير النساء حين تغزل بهن أوبهم، جادّا أو هازلا. إلاّ أنه أحيانا يرتفع في غزله إلى الفلسفة في الحب حين يقول في جنان:

وذات خـدّ مورد فتّانة المتجرّدْ

تأمّل الناس فيها محاسنا ليس تنفدْ

الحسن في كل جزء منها معاد مردْ

فبعضه في انتهاء وبعضه يتولّدْ

فاشرب على وجه بدر ريّان غير معربدْ.

وإذا كان عمر بن أبي ربيعة قد لاحق الحاجّات، واجتمع إليهن ووصفهن، فقد فعل أبو نؤاس مثل ذلك ووصف منهن الخصر والردف والكلف والهوى، ورسم بعض ما وقع له معهن في الحج:

وعاشقيْن التقى خداهما عند التثام الحجر الأسود

فاشتفيا من غير أن يأثما كأنما كانا على موعد

لولا دفاع الناس إيّاهما لما استفاقا آخر المسند

ظللنا كلانا ساتر وجهه ممّا يلي جانبه باليد

نفعل في المسجد ما لم يكن يفعله الأبرار في المسجد

ويقول بعد أن تعب في طلب قبلة، ثم فاز بها:

سألتها قبلة ففزت بها بعد امتناع وشدّة التعب

فقلت: بالله يا معذبتي جودي بأخرى أقضي بها أربي

فابتسمت ثم أرسلت مثلاً يعرفه العجم ليس بالكذب

"لا تعطينّ الصبي واحدة يطلب أخرى بأعنف الطلب"

ولن نطيل بذكر نماذج لهؤلاء الشعراء، لأننا لا نستطيع الإحاطة بهم وبشعرهم في مقالة كهذه...

ولا بد أيضا قبل إنهاء الحديث عن الغزل والمرأة في العصر العباسي، لابد من إطلالة سريعة على فئة أخرى من شعراء هذا العصر، والذين كانت للمرأة في شعرهم مكانة محترمة، فتغزلوا بها على غرار شعراء العصر الأموي، مع غلبة العاطفة على شعرهم الذي ابتعدوا فيه عن الأعضاء والجسد، وإنما داروا في فلك القلب والوجد والشكوى والحنين، من أمثال: ابن الرومي ودعبل الخزاعي والعباس بن الأحنف وأبي الطيب المتنبي والشريف الرضي وأبي تمام وأبي فراس الحمداني ومهيار الديلمي وغيرهم...

إن المرأة في نتاج هؤلاء الشعراء، هي امرأة قاتلة وظالمة، يتشوّق إليها الشاعر، ويحلم بها دائما، ويحاول أن يرسم لها صورة في الظن أو في الخيال، ويقرن بينها وبين القمر، فإذا بالأمر يختلط على الشاعر، ويرى قمرين اثنين في الوقت ذاته، كما يقول المتنبي في محبوبته التي تدلّت ثلاث خصلات من شعرها على وجهها، فتضاعف الليل في نظره ، وكذلك القمر، حيث يقول:

نشرت ثلاث ذوائب من شعرها في ليلة، فأرتني ليالي أربعا

واستقبلت قمر السماء بوجهها فأرتني القمرين في وقت معا.

أما المرأة التي يطمح إليها فعلا، فهي تلك المرأة التي لم تغيّر فيها أو في جمالها، أدوات الزينة والتطرية، هي تلك المرأة البدوية ذات الجمال الخام الطبيعي. يقول في ذلك:

حسن الحضارة مجلوب بتطرية وفي البداوة حسن غير مجلوب.

وها هي ظبية الشريف الرضي تأبى أن ترتعي إلا بقلبه المستهام، وأن ترتوي إلا بدمعه، وإذا كان يتشكى دائما من إخلافها الوعد، إلا أنها نعيمه وجحيمه. لنسمعه يصور ذلك فيقول:

يا ظبية البان ترعى في خمائله ليهنك اليوم أن القلب مرعاك

الماء عندك مبذول لشاربه وليس يرويك إلا مدمعي الباكي

وعد لعينيك عندي ما وفيت به يا طالما كذبت عيني عيناك

أنت النعيم لقلبي والعذاب له فما أمرّك في قلبي وأحلاك

عندي رسائل شوق لست أذكرها لولا الرقيب لقد بلّغتها فاك.

أما أبو فراس الحمداني، فهو مشتاق دائما للحبيبة، وشاك من تجاهلها له، مع أنه وقف في وجه أهله جميعا من أجلها، وهي تعلله بالوصل، ولكن الموت دون ذلك:

أراك عصيّ الدمع شيمتك الصبر أما للهوى نهيٌ عليك ولا أمر

بلى،أنا مشتاق وعندي لوعة ولكنّ مثلي لايذاع له سرّ

معللتي بالوصل والموت دونه إذا مت ظمآنا، فلا نزل القطر

وحاربت أهلي في هواك وإنهم وإياي، لولا حبك،الماء والخمر

تسائلني من أنت؟وهي عليمة وهل بفتى مثلي،على حاله نكر؟

فقلت كما شاءت وشاء لها الهوى قتيلك!قالت: أيّهم، فهم كثر

فقالت:لقد أزرى بك الدهر بعدنا فقلت:معاذ الله،بل أنت،لا الدهر.

وإذا وصلنا إلى ابن الرومي، فنجده يشكو أيضاً من نسيانهن للوعود والعهود، ولا يستغرب ذلك لأن اسم النساء مشتق من النسيان، فيقول:

ما للحسان مسيئات بنا ولنا؟! إلى المسيئات طول الدهر تحنانا

فإن تُبعن بعهد قلن: معذرة إنّا نسينا وفي النسوان نسيان

يكفي مطالبنا بالذكر ناهية أن اسمنا الغالب المشهور نسوان

إلا أنه، وعلى الرغم من رأيه هذا في النساء، أو في المرأة عامة، فإننا نجده وقد نظر إلى المرأة نظرة مختلفة عن غيره من الشعراء، وربما لم يسبقه أحد في هذا الرأي، فما عادت المرأة عنده مكمن جمال، ومستودعاً للذة، وإنما صارت حياته التي بها يعيش، فقد أحبها بكل ما فيها من جمال وقبح، ووفاء وإخلاف بالوعد، أحبها بكل ما فيها من متناقضات،شأنها شأن الحياة وما فيها من العجائب والغرائب، والأفراح والأحزان.لنسمعه يقول عنها:

بل هي العيش ،لا يزال متى استعــرض، يملي غرائبا ويفيد.

أو يقول:

كيف يا من بها قوام حياتي كنت بعدي؟ مذ بِنت يا مولاتي

أعلى العهد أنت؟أم حِلت عنه؟ جعل الله قبل ذاك مماتي

لست أنسى امتناع صبرك للتوديــع، والبين مؤذن بشـتات.

لقد كان في البال أن نلم أيضا بصور الغزل والمرأة في الأندلس، إلا أننا نرى أن ذلك يتطلب مقالات أكثر ،مع أننا قدمنا باقة واحدة من بستان غني بالورد والزهر والفوح والأريج....

إن المرأة هي المرأة، ومهما تغيرت الأحوال والظروف، فإنها سوف تبقى الأغنية الأعذب، واللفظة الأغلى، والصورة الأحلى، في أذن الرجل وعلى شفتيه وفي خياله. وهذا هو حالها في شعر العصر الحديث.ومن النادر أن نجد مبتدئا في الشعر،إلا وعزف على وتر المرأة، ولا شاعرا مجيدا إلا وكانت المرأة ملهمته ومنبع وحيه. ولن نعدد أسماء الشعراء، فيكفي أن نلقي نظرة على أي ديوان يقع في أيدينا لنجد أن المرأة تحتل قسما لا بأس به من هذا الديوان، هذا إذا لم تبسط المرأة كل رقتها وشفافيتها على هذا الديوان جميعه. ويكفي أن نشير إشارات سريعة إلى ثلاثة شعراء،خلدوا المرأة في شعرهم، أو خلدتهم المرأة في ذكرها. أحد هؤلاء الشعراء الثلاثة، الشاعر الفنان نزار قباني، الذي أوقف نتاجه تقريبا على المرأة ولم يتعدها .. وهو على الرغم مما قاله في المرأة: فإنه لايزال لا يزال طفلا، وفي الصف الإبتدائي الأول في مدرسة الحب والغزل، رغم مرور عشرين عاما من الهوى والغزل. حيث يقول:

عشرون عاما فوق درب الهوى ولا يزال الدرب مجهولا

فمـرة كنـت أنـا قاتـلا وأكثر المرات مقتولا

عشرون عاما يا كتاب الهوى ولم أزل في الصفحة الأولى.

وثاني هؤلاء الشعراء، هو الشاعر خليل مردم بك الذي أحب وتغزل ووصف ما كان بينه وبين محبوبته، حيث يقول:

يا من يعيد لياليا التي سلفت بما يشاء من الأعوام من أجَلي

إذا خلونا جعلنا شرط ليلتنا من نام نبّهه اليقظان بالقبل

فكنت أنْوَمَ من فهد بيقظتها كيما تقبلني علّاً على نهل.

وثالثهم الشاعر بشارة الخوري (الأخطل الصغير)، الذي تكلم باسم المحبين والعشاق، وقدّم قلبه على مذبح الهوى والشباب، ورأى أن كل عذابات العشق، قد تراكمت عليه، وأثقلت كاهله، حتى لكأنه العاشق الوحيد في الدنيا،فيقول مخاطبا قلبه المعذَّب وحبيبه المعذِّب:

أيها الخافق المعذَّب ياقلبي نزحت الدموع من مقلتيا

أفحتم عليّ إرسال دمعي كلما لاح بارق في مُحيّا

يا حبيبي لأجل عينيك ما ألقى وما أوَّل الوشاة عليّا

أأنا العاشق الوحيد لتلقى تبعات الهوى على كتفيَّا؟!

إسقِني من لَماك أشهى من الخمر ونمْ ساعة على راحتيَّا.

والآن نخلص بعد هذا العرض السريع، إلى الإستنتاجات التالية:

1-أن المرأة كانت ولازالت تحظى بالإهتمام والعناية في جميع المجتمعات والعصور.

2-أن المرأة هي العامل الرئيس بل الوحيد،في توازن الرجل العاطفي واستقراره.

3-أن نظرة الرجل للمرأة لم تتغير في جوهرها،فلا زالت في نظره مخلوقاً جميلاً وكائناً لطيفاً، وعشيراً ممتعاً،وجسداً لذيذاً، وآلة لإنجاب الأطفال.

4-أن منزلة المرأة، لازالت دون مستوى الرجل، لأنه هو صاحب السلطة والقرار.

5-أن الشعر في أكثره، لم يتعامل مع المرأة، إلا من خلال الرؤى السابقة.

6-أن الغزل كان ولا يزال، يتخذ من المرأة مادته وموضوعه، وإن شذّ عن ذلك أحيانا وفي ظروف عابرة.

7-أن الإحاطة بموضوع المرأة، أمر بالغ الصعوبة.

8-أننا لم نستوفِ بالطبع كل ما قيل في المرأة وعنها، في الشعر العربي.

9-أننا تتبّعنا وبكثير من الإيجاز، النظرة العامة للمرأة عبر الأعصر الأدبية، من خلال نماذج لشاعرأو أكثر من مئات الشعراء.

10-أن حديثنا انحصر في شعر الشعراء الذكور، ودون أن نتطرق إلى الشاعرات اللواتي يحتج إلى مقالة مستقلة..